البطىء استفادتنا من الرقى الطبيعى . على أنه وجد بالبحث حتى الآن أن جميع الامم المتوحشة تتبع نظاما واحداً فى تربية أفرادها مهما تعددت قارات سكناها ولذا لا نحتاج الى أكثر من فصل واحد لشرح ذلك النظام

أما الأمم الأخرى التى تدرجت الى أعلى فى سلم التمدين فانها اتخذت نظما متباينة ولذا اضطررنا الى أن نفرد لكل أمة منها فصلا على حدته

احمد فهمى البطاط

السلطة والحرية

معناهما . نشأتهما . أثرهما فى التربية

رُسُّو — يقول الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه سر تطور الأمم « للاعتقاد قوة لا يغلبها الا قوة اعتقاد مثلها . فليس للايمان عدو الا الايمان ، والنصر حليفه ، متى كانت القوة المادية التى تعترضه خادمة لشعور ضعيف ، ومعتقدات تولاها الوهن » . وفى رأيى أن هذا يكشف لنا الحجاب عن أسرار تلك القوى المعنوية ، التى امتاز بها المصلحون فى العالم ، فكان لهم منها جيوش لا يدرك الطرف مداها ، ولا يلحقها الفناء ، يحدوها النصر ، وتمشى على أثرها الأفكار الجديدة ، وينبعث منها النور ، فتنجاب الظلمات ، ويتجلى وجه البسيطة مشرقا باسما ، اغتباطاً بعصر جديد ، وعهد سعيد . وفى استطاعتنا أن ندلى بالحجج ، ونضرب الامثال ، قديمها وحديثها ، غير أنا نؤثر الاجمال ،

ورب اشارة دالة .

ان أول جملة افتتح بها رسو كتابه « أميل » هى « أن الأشياء كلها خيِّرة ، عند ماتصنعها يد القدر الألهية ، فاذا تناولتها يد الأنسان أخذت فى الانحطاط ، وسارعت الى الشر . » ولا شك أن هذا ضد ما كان يعتقد الناس قديماً ، وعلى هذا الاعتقاد بنى رسو مذهبه ، وبقدر رسوخه فى نفسه بلغ نجاحه من غير نظر الى خطئه أو صوابه

لست أريد أن أتعرض للرجل فى جملته ، وأنظر اليه من مناح كثيرة ، وأصدر بعد ذلك الحكم له أو عليه ، فهذا عمل الناقدين من كتاب السير ، ولكنى سأستمد من أفكاره ، وآخذ من آرائه قليلا ، مما له رابطة بموضوعنا .

رأى رسو أن المدارس أحوج ماتكون الى رجل مصلح ، يرشد المعلمين الى طبيعة الأنسان ، ويدعوهم الى دراسة الطفل ، وملاحظة ميوله وغرائزه ، وإصلاح طرق التعليم ، وتغيير مناهجه ، فأخذ على عاتقه هذا الحمل الثقيل ، ووجه اليه كل ما أوتى من قوة ، وأذن فى الناس أن قد آن أوان الأصلاح ، ورفع لواء الحرية ، واعتبر المدارس سجوناً ، وحمل عليها وعلى المدنية حملة دكت صروح « الجمعية الفرنسية » ونادى باتباع « الطبيعة » والرجوع الى العصور الأولى : أيام كان الأنسان هائماً على وجهه ، يسكن الكهوف ، ويأوى الى المغارات ، ويأكل من نبات الأرض ، وأثبت أن المدنية أسر لايطاق ، واستعباد لا يحتمل ، وأهاب بالمدرسين أن يدعوا لتلاميذهم الحرية فى كل شىء .

وأن يربو على « مقتضى الطبيعة » ، وأصدر كتابه « أميل » فأحدث ثورة فكرية ، كانت على ما يقال بذور الثورة الفرنسية ، وبيّن للناس كيف ينبغي أن يربى الصبيان ، وأراهم مثالا — زعمه حسناً — في « أميل » ، فترك له الحرية التامة ، وعهد به للقوى الطبيعية ، والميول الشخصية ، فنشأ متقلباً لا يعرف واجباً ، ولا يفهم معنى للطاعة ، لا يطلب شيئاً من أحد ، ولا يشعر بواجب عليه لأحد ، فهو بمعزل عن الجماعة ، لا يعتمد الا على نفسه ، ولا يحترم غيره من بني الانسان ، ولا يخضع لقوانين الاجتماع ، ولكن اتبع هواه ، وفعل ما سولت له نفسه ، وانغمس في اللذات ، وزعم أن هذه حرية ، والحرية كل شيء لديه .

يقول رسو « لقد عقدت النية على أن أخلص ولدي من جميع القيود ، وأن أترك له الحرية التامة ، ليستعمل ما وهب من القوة ، حتى تنمو جميع ميوله الطبيعية . ولهذه الطريقة فائدتان ؛ أما أولاهما فهي أني نجيت عقله الفتي ، من الغش والغرور ، والغضب والحسد ، وبالاختصار ، من سائر الرذائل التي تنشأ من الاستعباد ، والتي لا مفر منها ، اذا نحن آثرنا الخضوع ، والطاعة العمياء ؛ وأما الثانية فنمو جسمه في ظلال الحرية ، بما يقوم به من الأعمال البدنية ، التي تدفعه اليها غرائزه . » ويقول « لا تأمر تلميذك أن يفعل أي شيء في العالم — أي شيء مطلقا — ولا تدعه يتخيل أن لك عليه سيطرة . » ولا شك أن هذا غلو ممقوت ، ومجاوزة حد الاعتدال ، لان رسو أراد أن يفر

بتلميذه من أسر المدرسة ، واستعباد (الجمعية الفرنسية) ، فأوقعه فى أسر الطبيعة ، وساقه الى استعباد يبقى ما بقى الدهر . وان شئت البرهان ، فأليك ما يقول (أميل) الذى نشأ فى ربوع الحرية التامة ، وترعرع فى حجر الطبيعة قال (ليس هناك من استعباد سوى استعباد الطبيعة ، وما بنو الأنسان الا مجرد وسائل فى يدها .) (ماذا أفعل بالحرية اذا من الزمان بها على .) (لقد سلبت الأرادة ، فليس لى سوى أن أتبع ارادة غيرى .)

هذا هو (أميل) ، الذى رباه رسو ، وعلمته (الطبيعة) ، وحبب اليه الاستقلال ، وعدم الاعتماد على أحد من بنى الأنسان . ألا ينفطر قلب رسو ، ويتقطع كبده ، اذا سمع هذه الشكاية المرة ، وعرف ذلك الذل المهين ؟

وغريب جداً أن رسو هـذا — وهو رسول الحرية ، وبشير الاستقلال — يلجأ الى الشدة المتناهية ، ويدعو الناس الى أن يحملوا أبناءهم العاقبة الطبيعية لأعمالهم ، وكثيراً ما تكون وبالا على الناشئين . واليك ما يقول فى هذا الموضوع (اذا كسر « الولد » زجاج النافذة ، فدع الريح تهب فى حجرته ليلا ونهارا ، ولا تبال اذا نال منه البرد ، فخير أن يقاسى آلام الداء على أن يفعل مثل هذه الأشياء ، . . . . فاذا كسر الزجاج مرة ثانية ، فعامله بطريقة أخرى ، وقل له بهدوء وسكينة ومن غير غضب ، (ان هذه النوافذ لى ، وليس لأحد أن يكسرها ،) وبعد ذلك اسجنه فى حجرة مظلمة لا نوافذ لها . وفى مثل هذه الحال ،

قد يلجأ الى البكاء والعويل ، فاذا فعل ، فلا تعره أية عناية ، ولا يهيجن بكاؤه فيك الرحمة .) ويقول (دعه « التلميذ » يحمل هذا النير الثقيل ، الذى تلقيه الطبيعة على عاتقه — نير الضرورة — النير الذى تسوقه اليه طبيعة الأشياء ، لا تقلب الرجال ، واجعل العنان الذى يكبح جماحه الضرورة ، لا السيطرة) .

وجملة القول أن كتب رسو مملوءة بالتناقض ، مدعاة الى الخطأ ، حتى لقد قال بعض الناقدين (أنه لا يعرف مؤلفاً أضر بالعالم من هذا المؤلف ، الذى كان يهرف بما لا يعرف .) ولكن لو رجع بنا الخيال الى زمن رسو ، وطاف بنا فى حجر الدراسة ، ومعاهد العلم حتى نرى ما كان يقاسيه الصبية فى ذلك الحين ، بين جدران المدارس وخارجها ، لتلمسنا له العذر ، وأكبرنا فيه الشجاعة والأخلاص وأن الذى حمله على مجاوزة الحد ، هو شديد رغبته فى الأصلاح ، وغرامه بالقضاء على النظام القديم . وانا مع هذا لنعترف له بالفضل ، ونقر له بالسبق ، ونقول مع القائلين ، أنه واضع أساس علم النفس الحديث ، وكفى بذلك فخرا ؟

محمد على المجذوب